﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

[الأعراف: 87]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إفسادُ الكافرينَ لا يستمرُّ، والله يَجْري حكمُه في مآل البشر

لمّا حذّرَ الكافرين وخامةَ الفسادِ الّذي نهاهم عنه، رجعَ إلى خطابِ جميعِ القومِ؛ لتثبيتِ المؤمنين، وليكونَ تسليةً لهم، وليبيِّنَ أنَّ إفسادَ الكافرين لا يستمرُّ، فيكون زجرًا لهم[1]، وأيضًا لمّا رغّبَهم ورهّبهم في الآية السّابقة، أكّد هذا التّرغيبَ والتّرهيبَ بالأمر بالصَّبر، حتّى يحكمَ اللّهُ قريبًا بين الجميعِ؛ ليكونَ وعدًا للمؤمنين ووعيدًا للكافرين[2].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

حُكْمُ اللهِ هو الفاصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ

مفادُ الآية، أنّ اللّه يقول: وإن كان جماعةٌ منكم صدّقوا بالّذي أرسلني اللّهُ به من إفرادِه بالعبادةِ، وتركِ الفسادِ في الأرضِ، وجماعةٌ أخرى لم يصدِّقوا بذلك فانتَظِروا حُكمَ اللّهِ وقَضاءَه الفاصلَ بيننا في هذه الدّنيا أو في الآخرة، واللّهُ خيرُ الحاكمين، فلا معقِّبَ لحكمِه ولا حيفَ فيه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ مجيء أداة الشّرط ﴿وَإِن﴾ على خلافِ مقتضى الظّاهر:

أمرُ الإيمانِ وانتفاؤُه راجعٌ إلى اللهِ تعالى

أورد الكلامَ على سبيل الفرض والاحتمال، وهو أسلوبٌ حجاجيٌّ بيّنٌ في الغلبة، وردٌّ النّفوس إلى التّعقّلِ، وقد جاءَ على خلاف الظّاهرِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/286.
(3) ابن جرير، جامع البيان، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

لأنّ حقيقةَ الأمرِ أنّ طائفةً آمنَت وأخرى كفرَت، والأولى تنتظرُ الوعدَ، والأخرى تنتظرُ الوعيدَ، والنّكتةُ فيه اقتضاءُ المقامِ التّجاهل لتعليق الأمرِ على حكم اللّه تعالى، والمعنى: إشعارُ المخاطبينَ أنَّ أمرَ الإيمان وانتفاءَه راجعٌ إلى اللّه تعالى، وأنّه هو الّذي يحكم بيننا، ويؤيّده مجيءُ ﴿حَتَّىٰ﴾ الدّالّة على حصولِ حكمِ اللّه بينهم في المستقبلِ القريب. وقد جاء كذلك أيضًا؛ للإيذانِ بأنّه ﷺ قد تحقّقَ من إيمانِ مَن آمنَ من قومِه، وكفرِ مَن كفرَ، وللإشعارِ بأنَّ المعنى: تبيَّن أنَّ طائفةً منكم آمنوا، وطائفةً لم يؤمنوا، فاصبروا، ويؤوّلُ المعنى: إنْ اختلفتم في تصديقي، فسيَظهرُ الحكمُ بأنّي صادقٌ، فكأنَّه أرجعَ كلَّ طائفةٍ إلى حكم اللّه؛ ليستبينَ صدقه ﷺ فيما أُرسلَ به[1]، ولمّا كانَ الإيمانُ مُقدَّمًا على الكفرِ، قُدِّمَ ذكرُ طائفةِ المؤمنين على طائفة مَنْ لم يؤمن؛ للإيذانِ بفضلِهم، وللحثِّ على إيمانِ مَنْ لم يؤمن.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ دون ما يُقاربُها منَ الألفاظ:

الدّلالةُ على كثرة الطّائفتين، مع تنوّع المقاصد

لمّا كان لفظُ طائفةٍ يُطلَقُ على جماعةِ الخيرِ وجماعةِ الشَّرِّ، وكان اللَّفظُ يُطلَقُ على جماعةٍ فيهم كثرةٌ، بحيث يتحلّقون بمَن يريدون أفاد أنَّ مَن آمن معه كان فيهم كثرة، كما أنَّ طائفةَ مَن لم يؤمن كانت كثيرةً بالنّسبة إلى الأولى[2].

مناسبةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

تأكيدُ المعنى بطريقِ تقويةِ الإسنادِ

جاء الخبرُ جملة فعليّة في قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ﴾، لَمْ يقُل: (وإنْ آمنتْ طائفةٌ منكُم ولم تُؤمنْ طائفةٌ)؛ لأنَّ في مجيءِ الإسنادِ بطريق المبتدأ، وخبرُه جملةٌ فعليّةٌ، تأكيدًا للمعنى وتقريرًا له؛ لمناسبةِ تقويةِ الحكم وتربيةِ الفائدة، بمجيءِ المسندِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/250.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.

فعلًا، فالإسنادُ على نيَّةِ التّكريرِ لاستدعاء اسم كانَ (المبتدأ في الأصلِ)، أن يُسنَدَ إليه شيءٌ، فاكتسى الحكمُ على كلِّ طائفةٍ بما أُسنِدَ إليها، منَ الإيمانِ أو عدمِه قوَّةً وثباتًا في المعنى[1].

نكتةُ ذِكْرِ القيد (مِنكُم):

إيمانُ طائفةٍ منَ القومِ حجَّةٌ على البقيّة

في قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ﴾، جاء الجار والمجرور ﴿مِّنكُمْ﴾ صفةً لـ ﴿طَآئِفَةٌ﴾، ولمّا كانت صفةُ النَّكرةِ على معنى التّخصيص، دلَّ على أنَّ المرادَ طائفةٌ منكم يعيشون معكم، وهم من نسبِكم، وليس من غيرِكم، قد آمنوا بالّذي أُرْسِلْتُ به؛ ليفيدَ التّعجيبَ من كفرِهم، والمقصودُ ليس العيبَ فيما أُرْسِلْتُ به؛ لإيمانِ طائفةٍ منكم به، بلِ العيبُ فيكم.

نكتةُ التّعبيرِ بالموصول وصلته:

شريعةُ الأنبياء واضحةٌ معلومةٌ لجميعِ النّاس

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾؛ لبيان أنّهم اتّصفوا بالإيمانِ لإيمانِهم بالّذي أُرسِلَ به، ولمّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتساب عند المتخاطبين، دلَّ على أنَّ الطّائفتينِ كانوا عالمينَ بما أُرسِلَ به شعيب عليه السلام، من أمور التّوحيدِ، وما دعا إليه من شرائع الدّين، ففي التّعبير بالاسم الموصول إيجازٌ، ودلالةٌ على تمام البلاغ لمعرفة المبلّغين به، فالتّعبيرُ بالاسم الموصول أعمُّ وأبلغُ من أن يقولَ: (وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بي)[2]، لما يتضمّنه الكلامُ منَ الإيمان بالمرسِل والرّسالة المُرْسَلِ بها، ولِما يفيده الاسمُ الموصولُ وجملةُ الصّلةِ منَ المبالغةِ؛ لإحضارِه في ذهنِ السّامعِ، بوساطة جملة الصّلة المعلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه معيّنٍ، لزيادة تقريرِ أمرِ الرّسالة وشرائعِها[3].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217 - 221.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾:

عُبِّرَ بصيغة المبنيّ للمفعول، في قوله تعالى: ﴿أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الفاعلَ معروفٌ بما تقدَّم منَ السِّياقِ، وأنَّه صار بحيثُ لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ، لِما نصبَ منَ الدّلالاتِ[1].

التّعبيرُ بصيغة المبنيّ للمفعولِ؛ لظهورِ الفاعل ومعرفتِه

سرُّ التّعبير بطباق السّلب:

ورد طباقُ السّلب في ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أنَّ افتراقَ الطّائفتين، إنّما كان في الإيمانِ بالّذي أُرسِلَ به شعيبٌ عليه السلام، وليس في أمرٍ آخرَ، والطّباقُ أسلوبٌ بديعٌ في التّفريق بين المختلفات، وتمييز الأشياء بعضها عن بعض، فهما نوعان متمايزان.

تمايزُ كلّ طائفة، يغري باستنطاق الحقّ وبيانه

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلّق:

لمّا ذكرَ في القسم الأوّل قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ﴾ دلَّ على أنَّه عينُ المحذوف في مقابله، والتّقدير: ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ بما أُرسِلت به، فحذَفَ المتعلّق للإيجاز، وللإشعارِ بأنَّ مَن لم يؤمن بما أُرسِلَ به حقيقٌ أن ينتفيَ عنه الإيمانُ مُطلَقًا، وكأنّه شاكل بين انتفاء إيمانهم بالرّسالة في الواقع، فبني النّظمُ على عدم وجوده أيضًا.

مَن لم يؤمنْ بجزءٍ من أصولِ الإيمان كان كَمَن انتُفِي عنه الإيمانُ

فِعلُ ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

لمّا كان الأمرُ بالصّبرِ هنا لِمَن آمن، ومَن لم يؤمن، دلَّ على تضمّنِ الفعلِ الحقيقةَ والمجازَ بلفظٍ واحدٍ، فأمّا الحقيقةُ فهي الأمرُ بالصّبر على الإيمان والثّبات عليه، للطّائفة المؤمنة حتّى يحكمَ اللّهُ، فيكون في الأمر معنى الوعدِ للمؤمنين، وأمّا المجازُ فهو في دلالة الأمر على قوّة الوعيدِ والتّهديدِ، للطّائفة الّتي لم تؤمن، بانتقام اللّه منهم، فليس هذا أمرًا بالمقام على الكفر للطّائفة الّتي لم تؤمنْ

السّياقُ يؤثّرُ في الدّلالة ويعزّزُ المعنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463.

بالّذي أُرسِلَ به شعيبٌ[1]، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ المعنى: ليصبرِ المؤمنون على أذى الكفّار، وليصبرِ الكفّارُ على ما يسوؤهم من إيمانِ مَن آمن منهم، وذهب آخرون إلى أنَّ الخطابَ مختصٌّ بالكافرين؛ أي: فاصبروا أيّها الكافرون، وتربّصوا، فيكون وعيدًا بانتقام اللّه منهم[2].

بلاغةُ التّعريض:

التّعريضُ بالوعيدِ للكافرين، وبالوعدِ للمؤمنين

في قوله: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ تعريضٌ بالكافرين وقت نزول القرآن، وفي كلِّ زمانٍ ووعيدٌ لهم، وفيها وعدٌ للطّائفة المؤمنة الّتي مع سيّدنا محمّد ﷺ، وحثٌّ لهم على الصّبر على ما يلحقُهم من أذى الكافرين إلى أن يحكمَ اللّهُ قريبًا بمقتضى العدل والحكمة، وهو خيرُ الحاكمين.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾:

تحديدُ الغاية تحقيقٌ للوعيد والتّهديد

تفيدُ (حتّى) انقضاءَ الوقتِ شيئًا فشيئًا، إلى حدِّ انتهاء الغاية، والمعنى على الانتظارِ، والإمهالِ في الزّمن القريب، وتحديدُ الغاية يكشفُ عن تمكّنِ المُهدِّد الموعد ممّا هدّدَ به وتَوَعّدَ.

بلاغةُ التّغليبِ في قولِه: ﴿بَيۡنَنَا﴾:

المرادُ من لفظ ﴿بَيۡنَنَآ﴾ جميعُ المخاطبين، من مؤمنٍ وكافرٍ

عُبِّرَ بالضّمير (نا) على وجه تغليب ضمير المتكلّمين على المخاطبين، في قوله: ﴿بَيۡنَنَآ﴾، من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾، إذِ المرادُ بيننا جميعًا من مؤمنٍ وكافرٍ[3]، ولولا التّغليبُ لاحتاج النّظمُ لزيادة (بينكم)، لكنّ التّغليبَ جاء على الإنصاف لاشتراك النّوعين في الانتظار، هذا ينتظرُ تحقيقَ الوَعد، والآخر ينتظرُ تحقيقَ الوَعيد.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/214، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/248.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/427، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/214.

سرُّ عدمِ ذكرِ توقيتِ وقوعِ حكم الله:

في إخفاء زمن الموعود والمهدّد به، زيادةُ تشويق، وزيادةُ تخويف

ذكرَ المُنتَظَرَ، ولم يذكر زمنَ وقوعِه ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾، مع أنَّ الخطابَ على معنى الوعدِ للمؤمنين، والوعيدِ للكافرين، ليبقى المؤمنون متشوّقين لإظهارِ أمرِ الإيمان، ويبقى الكافرون خائفين مرهوبين من نزولِ العذابِ بهم؛ لعلمِهم بصدقِ الرّسول، والمعنى: حتّى يحكُمَ اللّهُ بيننا بنصرِ المحقّين على المبطلين، والمرادُ من وقوعِ حكمِ الله إعلاءُ درجاتِ المؤمنين وإظهارُ هوانِ الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدّنيا، فإنْ لم تظهرْ في الدّنيا، فلا بدَّ من ظهورها في الآخرة[1].

دلالةُ لفظ ﴿خَيۡرُ﴾ بين الوصف والتّفضيل:

الخيرُ في حكمِ اللهِ، ولا خيرَ في حكمِ غيرِه

يحتمل لفظُ ﴿خَيۡرُ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أن يكونَ وصفًا، وهو الظّاهر، بمعنى: الخيرُ في حكمِ اللهِ، ولا خيرَ في حكمِ غيرِه، فمَن وافقَ حكمُه حكمَ اللهِ دخلَ في الخيريّة، ويحتملُ أن يكونَ اسمَ تفضيلٍ، على معنى: حكم الله تعالى أفضلُ ممّا يقعُ في الظّاهر من خيرٍ في حكم غير الله، وهو في الحقيقةِ راجعٌ إلى الأوّل.

سرُّ وقوعِ الضّميرِ العائدِ على الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

خيرُ الحاكمين واحدٌ لا ثانيَ له، وهو الله سبحانه

ذكرَ المسندَ إليه بالضّمير العائد على الاسم الجليل؛ تأكيدًا أنّه لا يفصلُ في الحكم في الآخرة سواه، ولتفرّده سبحانه بهذا الوصف، ذكر بالضّمير؛ لبيان أنّه واحدٌ في هذه الصّفة، وأنَّ الاسمَ الجليلَ الجامعَ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ، هو الّذي اقتضى أن يكونَ ﷻ خيرَ الحاكمين؛ لأنَّه يفصلُ النِّزاعَ على أتمِّ وجهٍ وأحكمِه[2].

دلالة الاسميّة، في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

لم يقُل: (حتّى يحكم الله خيرُ الحاكمين)، فيُتوهّم أنَّ الكلامَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463.

التّعبيرُ بالجملةِ الاسـميَّـةِ هنا أوفـى في تـأديةِ المعنى وإصابةِ محزِّ البلاغة

يكونُ أخصرَ وأوجزَ بالوصفِ؛ لأنَّ التّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ هنا أوفى في تأديةِ المعنى وإصابةِ محزِّ البلاغة، لِما يقتضيه المقامُ، وبيانُه في مسألتين:

أوّلًا: أنّه لمّا عُبِّرَ بصيغة المضارع ﴿يَحۡكُمَ﴾ المفيد تجدّدَ ظهورِ حكمِه في كلِّ حادثةٍ متجدّدةٍ، دلَّ مجيءُ الجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على ثبوتِ مضمونِها، أنّه تعالى خيرُ الحاكمين في كلِّ حادثةٍ يحكمُ بها.

ثانيًا: إذا حُمِلتِ الواو على الاستئناف تكون الجملةُ المستأنفةُ على معنى تأكيدِ ما قبلها، لصحّة مجيء المستأنفة على معنى التّأكيد.

بلاغةُ التّذييل بقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

تـقـريـرُ المـعـاني وتأكيدُها كاشفٌ عن أهمّيّتها

من فوائد بلاغةِ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة الحاليّة كذلك، استقلالُها بفائدةٍ جديدةٍ غير منقطعةٍ في المعنى عنِ الّتي قبلها، وجاءتِ الجملةُ بطريقِ التّذييل لفوائدَ لغويّةٍ، منها؛ أوّلًا: أنّها تفيدُ معنى عامًّا كلّيًّا؛ أي: في كونِه تعالى خيرَ الحاكمين في كلِّ واقعةٍ يظهرُ حكمُه فيها، إذ لا مُعقِّبَ لحكمه، ولا حَيفَ فيه[1]. ثانيًا: أنّها تفيدُ تقريرَ ما تقدّمها منَ المعاني في الآية[2]. ثالثًا: أنّها تفيدُ الثّناءَ على اللّهِ تعالى، بأنَّ حُكمَه عَدلٌ محضٌ، لا يَحتملُ الظُّلمَ عمدًا ولا خَطأً[3]. رابعًا: أنّه لمّا كان اللّهُ تعالى خيرَ الحاكمين، دلَّ على أنَّه يخصُّ المؤمنَ التّقيَّ بالدّرجات العالية، والكافرَ الشّقيَّ بأنواع العقوبات[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/251.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

المحتويات

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»